18

تشريح أزمة: الـ «مياغويز»

حسبنـا أننا أصبحنا أحراراً في نهاية المطاف كي نعمـل على مداواة جراح الأمة، حين «مدت» الهند الصينية يدها فجأة، وسحبتنا، مثل رجل غريق، إلى الدوامة مرة أخرى. الحادثة برمتها لم تستغرق أكثر مـن ثلاثـة أيام، لكن كانـت نتيجتها إيجابية، وذلك علـى العكس من معظم تجاربنا فـي المنطقة. ولأنها كانـت واضحة المعالم نسبياً، فقـد أتاحت لنا استقصاء كيفية معالجات الأزمـات، والتعامل مع الأوضاع التي يسيطر عليها التشوش والارتباك والفوضى، والدور الذي تلعبه البيروقراطية، وحالات الغموض وعدم اليقين المتأصلة في العملية.

خـلال مـدة عملي وزيـراً للخارجية، حرصت عمومـاً ـ حين لا أكـون غائباً عن واشنطـن ـ على عقد اجتماعيـن في الأسبوع مع كبـار الموظفين والمساعدين العاملين معي. كانـت هذه الاجتماعات تعقد في غرفـة مؤتمرات مستطيلـة الشكل، ليس فيها ما يثير الاهتمام، تقع على الطـرف الآخر من الجناح الأنيق لوزيـر الخارجية. ومنذ ذلك الحين، جرى تغيير وتجديـد وتحديث بنية الطابق السابع برمته، حيث يعمل معظم المسؤولين الكبار في وزارة الخارجية، وذلك بتوجيه من أمينها العام، كليمنت كونغر. وحين استلمت منصـب وزيـر الخارجية، كان كونغر قد بـدأ لتوه العملية، انطلاقاً من جناح معـاون الوزير. اعتاد حضور الاجتماعـات عدد يتراوح بيـن عشرين وخمسة وعشرين شخصاً: مساعدو الوزيـر ومعاونوهم، بالإضافة إلـى بعض من كبار الموظفين. لم يكن الغرض من الاجتماعات رسم السياسـة الخارجية ـ فالمجموعة كبيرة العدد جداً ـ بل لإبقاء المسؤولين الأساسيين على إطلاع لاتجاهاتها الرئيسة. أما الأزمات الحقيقية والمفاوضـات الفعليـة فتتعامل معها مجموعات خاصة أقل عدداً. إذ إن آخـر ما يريده المرء أن يعالج في اجتماع موسع للموظفين أزمة مفاجئة تداهمه على حين غرة.

الاجتمـاع الـذي عقد فـي الثاني عشر مـن أيار/مايـو 1975، بدأ بشـكل روتيني في الساعـة الثامنة صباحاً. بحيث طلبت من رؤساء الأقسام والإدارات العاملة في مجال التخطيط النظري والأداء العملي من الحاضرين أن يقدموا لزملائهم توصيفاً للقضايا الرئيسة التي تواجههم. وحين جاء الدور على جي.اوين زورهيليـن (الابـن)، نائب معـاون وزير الخارجية لشؤون شـرق آسيا، والذي كان يجلس في مكان فيليب حبيب (المسافر آنئذ)، ذكر ما يلي:

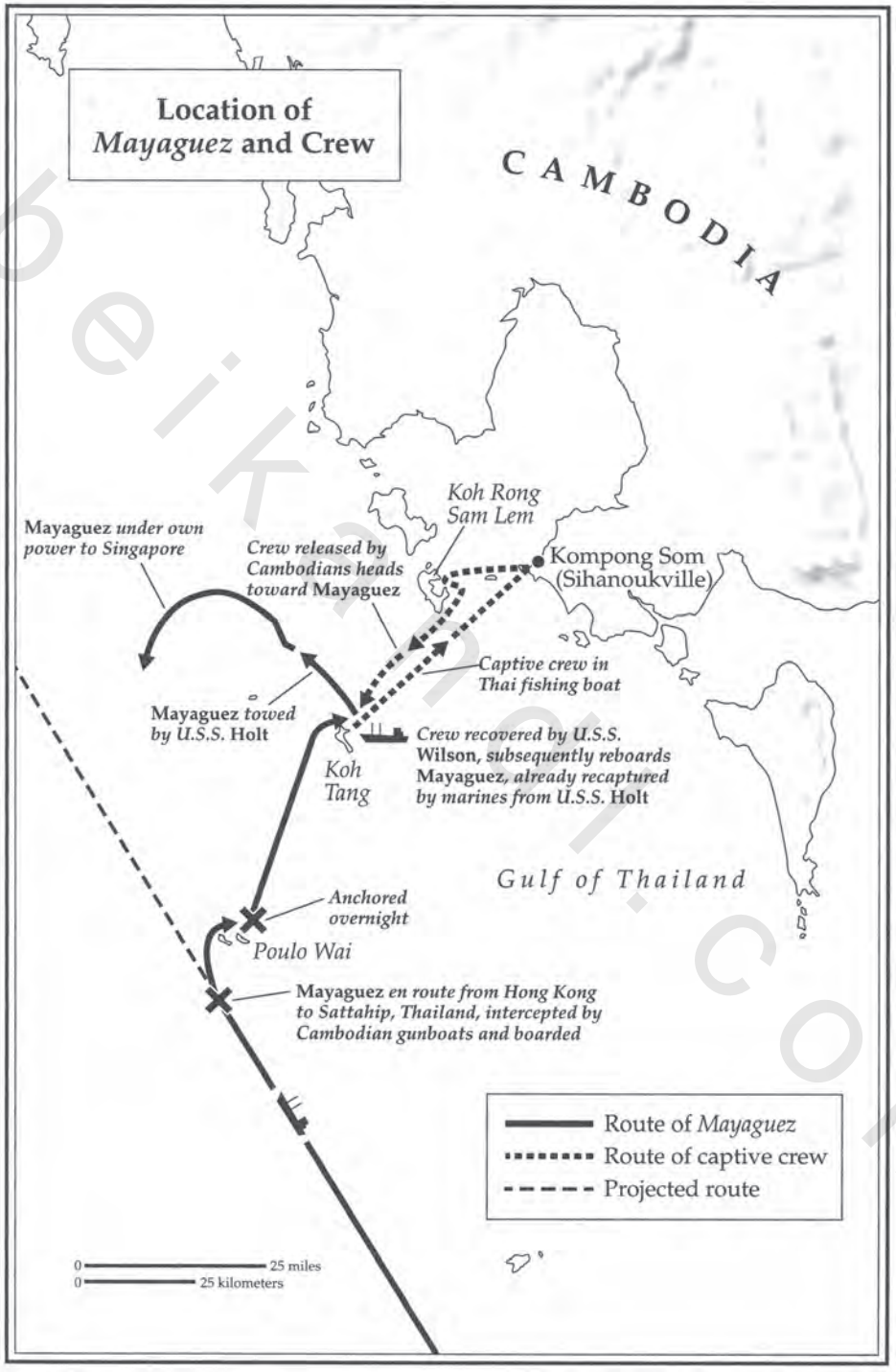
Location of
Mayaguez and Crew
CAMBODIA
Koh Rong
Sam Lem
Kompong Som
(Sihanoukville)
Mayaguez under own
power to Singapore
Crew released by
Cambodians heads
toward Mayaguez
Captive crew in
Thai fishing boat
Mayaguez towed
by U.S.S. Holt
Crew recovered by U.S.S.
Wilson, subsequently reboards
Mayaguez, already recaptured
by marines from U.S.S. Holt
Koh
Tang
Gulf of Thailand
Anchored
overnight
Poulo Wai
Mayaguez en route from Hong Kong
to Sattahip, Thailand, intercepted by
Cambodian gunboats and boarded
Route of Mayaguez
Route of captive crew
Projected route
0 25 miles
0 25 kilometers

استولـى الكمبوديون على سفينة تجارية أمريكية على بعـد مسافة مئة ميل من الشاطئ، وهم يجبرونها على التوجه إلى مدينة سيهانوكفيل تحت حراسة الجنود الكمبوديين.

لـم يجد إجابة شافية حين سألته وأنا غير مصـدق: «كيف يمكن أن يحدث ذلك؟» ـ وأنا أقصـد الحادثـة ذاتها إضافـة إلى حقيقة أنه هـل كان من المتوجـب إعلامي بمثل هذا الأسلـوب المرتجل الفظ؟. لكن زورهيلين المسكيـن لم يعلم بالخبر إلا قبل دقيقتين من بدء الاجتماع، ولذلك أجاب صادقا: «الأمر ليس بيدي».

بعـد ذلـك أصبح هدفاً لوابل دافق مـن الأسئلة من وزير الخارجية الحانـق النزق ـ بدءاً مـن «ما هـي المدة التي قضاهـا التقرير على مختلـف المكاتب قبل أن يصـل إلى أعلى المسؤوليـن؟»، وصـولاً إلى «ما الذي سنفعله إزاء المشكلـة؟». لم يكن أحد يملك الإجابة عـن أي منهما، في حين طلبت الاتصال ببرنت سكوكروفت في البيت الأبيض لمعرفة أية معلومات تلقاها من البنتاغون. وحين اعتمرت قبعة مستشار الأمن القومي، طلبت القيام بعملية مسح سريعة لحجم القوات الأمريكية الموجودة في المنطقة والقادرة على اعتراض السفينـة، التـي ما تزال حسـب معلوماتنا على بعـد مئة ميل في عرض البحر. اختتمت الاجتمـاع بالقول: «أعرف بأنكم لن تسمحوا لكمبوديـا بالاستيلاء على سفينة تبحر على بعد مئة ميل من الشاطئ دون أن نفعل شيئاً».

السفينـة المعنيـة كانـت «مايا غويز»، التـي تم بناؤها عـام 1944 وأعيـد تصميمها عام 1960، لتكـون أول سفينة حاويات أمريكية بالكامل. لم يكن ماضيها مجيداً. ففي رحلتها التدشينيـة الأولى إلى فنزويـلا، رفض العمال تفريغ حمولتها خوفاً مـن أن يهدد أسلوب الشحن الجديـد (بالحاويات) مصدر رزقهم. وحين عادت إلى بالتيمور، ظلت دون عمل لمـدة سنتين اثنتين قبل أن تستأنف نقل البضائع إلى آسيا على الأغلب[1]. لم يكن هناك مـا يميزها عن مئـات السفن المماثلة التي تقطع البحار جيئـة وذهاباً، إلى أن أصبحت، بمحض الصدفة، محـور أزمة عالمية. بعد ثلاثـة أيام من التطـورات الدراماتيكية، تمّ إنقاذها وعادت إلى غياهب النسيان.

تطلـب الأمر بضع ساعـات لتجميع مسلسل الأحداث المتلاحقة التـي دفعتنا بسرعة إلى خضـم هذه الأزمـة. ففي وقت مبكـر من أصيل ذلـك اليوم، الاثنيـن 1975/5/12 (في الصباح الباكر بتوقيت واشنطن)، كانت الـ«مايا غويز» تعبر خليج تايلند على مسار شمالي غربي باتجاه مرفـأ ساتاهيب التايلندي (انظر الخريطة). وبعد الثانية بقليل (بالتوقيت المحلـي، الثالثة صباحاً بتوقيت واشنطن)، أطلقت النـار على السفينة، وأوقفت، وصعد

على متنها جنود نظام الخمير الحمر الدموي الذي استولى على السلطة في كمبوديا. ثم سحبت السفينة وطاقمها المؤلف من تسعة وثلاثين أمريكياً، وعلمنا أنها تتجه نحو البر الكمبودي. كما علمنا أن لحظة الاستيلاء عليها كانت على بعد ستين ميلاً تقريباً من ميناء كومبونغ سوم الكمبودي (سيهانوكفيل سابقاً)، قرابة ستين أو سبعين ميلاً من جزيرة بولو واي الصغيرة، التي يتنازع ملكيتها كل من كمبوديا وفيتنام.

كانت الـ «مايا غويز» تبحر على خط ملاحي دولي معترف به. ولا توجد نظرية معروفة في القانون الدولي يمكن أن تبرر الاستيلاء على السفينة واختطاف طاقمها، كما شرح سفير الولايات المتحدة في الأمم المتحدة جون سكالي في رسالة بعث بها إلى مجلس الأمن في الرابع عشر من أيار/مايو:

كانت السفينة في عرض البحر، ضمن خطوط الملاحة الدولية التي تستخدمها السفن قبل توقفها في مختلف موانئ جنوب شرق آسيا. حتى لو اعتبرت السفينة ـ في نظر بعض المراقبين ـ داخل المياه الإقليمية الكمبودية، فقد كانت كما هو واضح في رحلة بريئة إلى ميناء دولة أخرى. لكل ذلك، يعتبر الاستيلاء عليها أمراً غير قانوني ويشمل استخداماً واضحاً للقوة بشكل غير شرعي[2]❖.

لم يعرف كبار المسؤولين في الحكومة قاعدة العمل التي أصبحت معروفة منذ عدة أسابيع حتى تم الاستيلاء فعلاً على الـ «مايا غويز»: فقد أعلنت حكومة الخمير الحمر الجديدة أن مياهها الإقليمية تمتد مسافة تسعين ميلاً عن الشاطئ الكمبودي، بما في ذلك الجزر البعيدة. وعلى هذا الأساس، جرى توقيف أو الاستيلاء على السفن والمراكب التابعة لتايلاند وفيتنام الجنوبية خلال تلك الفترة كلها. وقبل عدة أيام، تعرضت سفينة شحن تابعة لكوريا الجنوبية إلى إطلاق النار، كما احتجزت سفينة تجارية بنمية لمدة ست وثلاثين ساعة. ولم يعتبر المسؤولون الحكوميون الذي أطلعوا على هذه الحقائق أنها مؤشرات ذات دلالات مهمة إلى حد يوجب عليهم إعلام رؤسائهم بها، ناهيك عن السفن الأمريكية التي تبحر في المنطقة.

توجهت بعد اجتماع كبار الموظفين في وزارة الخارجية إلى المكتب البيضاوي. حيث كان شغلنا الشاغل ـ أنا والرئيس فورد وسكوكروفت ـ سلامة طاقم السفينة. علمنا من مصادرنا الاستخباراتية أن الخمير الحمر قد أمروا بقتل المسؤولين في حكومة لون نول

(❖) تبعاً للقانون الدولي، تمتلك كمبوديا الحق بإيقاف السفينة، إذا كانت فعلاً داخل مياهها الإقليمية، للتأكد من أنها في رحلة بريئة ـ لكنها لا تملك الحق باحتجازها واعتقال طاقمها.

السابقة كافة، إضافة إلى أفراد عائلاتهم، بمن فيهم الأطفال. وكانت هذه الأوامر تتوسع لتشمل كل الذين تلقوا تعليماً «برجوازياً». وبالرغم من أن وسائل إعلامنا قد تجاهلت المحاولات الهادفة لنشر أخبار المذبحة على الرأي العام، إلا أننا عرفنا الحقائق وشعرنا بالخوف من تعرض حياة الأمريكيين للخطر.

اعتبارات السياسة الخارجية ألقت بثقلها أيضاً. فقد كانت الولايات المتحدة بحاجة إلى إظهار أن هنالك حدوداً لما يمكن أن تتحمله، لاسيما في أعقاب الانهيار في الهند الصينية. أما الحلفاء في المنطقة ـ اليابان وكوريا الجنوبية على وجه الخصوص ـ فكانوا يتفحصون سلوكنا بدقة لتحديد ما إذا كان سقوط سايغون يشكل نقطة علام تشير إلى انحراف عن المسار الذي اتبعته أمريكا، أو إلى تراجعها الدائم عن الاضطلاع بمسؤوليتها الدولية. حتى الصين، برغم صداقتها للخمير الحمر، كانت تدرس وتحلل تصرفاتنا وأفعالنا فيما يتصل بقدرتنا على/ أو استعدادنا لتأكيد مصالحنا القومية ـ وهو أمر له بعض العلاقة بقلقها الطاغي من مطامح الهيمنة السوفييتية.

كل صانع قرار يرى الأحداث من منظور تجربته الخاصة. إذ كان فورد عضواً في الكونغرس حين استولت كوريا الشمالية على السفينة «بويبلو» التي تحمل معدات استطلاع إلكترونية خلال فترة حكم جونسون. واحتجزت أفراد طاقمها رهائناً لمدة أحد عشر شهراً، ولم تطلق سراحهم إلا بعد أن قدمت أمريكا ما يشبه الاعتذار عن انتهاكها لحرمة المياه الإقليمية لكوريا الشمالية، وهو أمر هللت له بيونغ يانغ وتبججت به متفاخرة في أنحاء آسيا كافة باعتباره «نصراً عظيماً آخر يحققه الشعب الكوري الذي حطم أسطورة جبروت الإمبريالية الأمريكية ومزقها إرباً إرباً»[3]. منذ البداية، كان فورد مصمماً على عدم السماح بتكرار مثل هذا السياق من الأحداث.

لم تكن لدينا فكرة عن مكان الـ«مايا غويز»، ولا الجهة التي ستؤخذ إليها، ولا حجم القوات الأمريكية المتوفرة والضرورية لاتخاذ إجراءات مضادة. تلك كانت مشكلتنا. وبينما كان يتم جمع المعلومات الاستخبارية، أمر فورد بتكثيف عمليات الاستطلاع في انتظار الاجتماع الخاص لمجلس الأمن القومي الذي دعا إلى عقده عند الظهر في قاعة اجتماع الحكومة.

كثيراً ما تحشر الأزمات صانع القرار في الزاوية وتجبره على التصرف استنادا إلى معلومات ظنية نوعاً ما ـ خصوصاً عند البداية. ينطبق هذا بالتأكيد على أول اجتماع لمجلس الأمن القومي حول موضوع السفينة «مايا غويز». حضر الاجتماع بالإضافة إلي، الرئيس فورد؛ ونائب الرئيس روكفلر؛ ووزير الدفاع

جيمس شلسنغر ونائبه وليام كليمنتس؛ ونائب رئيس هيئة الأركان الجنرال ديفيد جونز (نظراً لوجود رئيس هيئة الأركان الجنرال جورج براون في أوروبا آنذاك)؛ ومدير وكالة الاستخبارات المركزية وليام كولبي؛ ونائب مستشار شؤون الأمن القومي الجنرال برنت سكوكروفت؛ ونائب وزير الخارجية روبرت انغرسول؛ وعضو مجلس الأمن القومي المسؤول عن شرق آسيا، ريتشارد سميزر؛ وكبير موظفي البيت الأبيض دونالد رمسفيلد. عرض علينا تقرير استخباري مفصل من قبل كولبي تبين فيما بعد أنه أخطأ في كل ما تطرق إليه. فقد ذكر أن الـ «مايا غويز» كانت تتجه بطاقتها الذاتية إلى ميناء كومبونغ سوم (سيهانوكفيل) بسرعة عشرة أميال بحرية في الساعة وهذا يجعلها قرب الميناء في الوقت الذي انعقد فيه اجتماع مجلس الأمن القومي ـ وهو رأي أكده شلسنغر: «حين غادرت البنتاغون كانت السفينة على بعد مايقارب عشرة أميال من البر».

وبعد اثنتي عشرة ساعة، اكتشفنا أن السفينة لم تتحرك من مكانها مطلقاً، وأنها ما تزال راسية في الموقع الذي احتجزت فيه بالضبط. بعض الغموض الذي يحيط بموقع السفينة كان أمراً لا مفر منه نظراً لضيق الوقت المتاح لتحليل المعلومات، إضافة إلى حقيقة أن أجهزة الاستطلاع مضطرة للاعتماد على أجهزة الالتقاط (الحساسات) التي تعمل بالأشعة تحت الحمراء (نظراً لأن الوقت كان ليلاً في جنوب شرق آسيا). لكن مجلس الأمن القومي لم يعلم بأية محددات تقيد مجال العمل، وهو أمر كان سيتفهمه؛ وبدت المعلومات التي تلقيناها دقيقة وشديدة التركيز على التفاصيل. توقعنا بعض التشوش والارتباك؛ أما تقديم معلومات تفتقد الدقة بشكل كلي فأمر يصعب تبريره ـ وفي الحقيقة، لا أعرف حتى اليوم السبب وراء ذلك.

فالمعلومات المقدمة حرفت مسار مناقشاتنا التي تركزت على كيفية اعتراض السفينة إلى ماهية الضغوط التي يمكن أن تجبر الخمير الحمر على إطلاق سراحها. فإذا ما وصلت الـ«مايا غويز» إلى ميناء على البر الكمبودي بحلول الوقت الذي سينفضّ فيه اجتماع مجلس الأمن القومي، فلسوف نواجه في الحقيقة تحدياً مماثلاً تقريبا لأزمة السفينة «بويبلو»، ونفس السيناريو الذي كان فورد مصمماً على تفاديه.

تبين أن كولبي كان أكثر دقة في المعلومات المتعلقة بالدوافع الكمبودية. فقد قدم الحجة على أن احتلال الخمير الحمر للجزر (وبالتالي الادعاء بمزيد من الحقوق في مساحات أكبر من المياه الإقليمية) قصد منه إحباط مخططات فيتنام الشمالية التي تستهدف نفس المنطقة. وأيد كليمنتس تحليل كولبي عبر الإشارة إلى المزاعم والادعاءات المتعارضة من قبل الدولتين الشيوعيتين كلتيهما حول حقوق التنقيب عن النفط في المنطقة الساحلية. الرئيس فورد قاطع النقاش ليقول:

الأمر مثير للاهتمام، لكنه لا يحل مشكلتنا. أظن أن علينا أن نصدر بياناً علنياً شديد

اللهجـة ونرسـل إشارة قويـة. لسوف نصـدر أيضـا الأوامر إلـى الحاملة «كـورال سي» بالعودة(*).

ثـم طلب مني الرئيـس، بوصفي مستشار الأمن القومي، أن أوجز الخيـارات المتاحة. حاولت جهدي، وأنـا أعتقد خطـأ بأن السفينة قد وصلت إلى الميناء فعلاً، أن أركز على الاستراتيجية التي يمكن أن تجبر الخميـر الحمـر على إطلاق سراح السفينة. أوصيت بعدم إجراء أيـة مفاوضات، لأن في ذلك قبولاً بمبدأ الاختطـاف، إضافة إلى أنه يقـدم مكافأة لاحتجاز الأمريكيين رهائن. أيـدت إصدار بيان شديد اللهجة، وإرسـال إشارة قوية عـن طريق بكين إلى كمبوديا (نظراً لعدم وجود علاقـات ديبلوماسية مع بنوم بنه)، مـع حشد مركز وسريع للقـوات العسكرية بحيث ينذر بأشد العواقب. يتذكر فـورد بأنني اختتمت عرضي للوضع بالكلمات التالية:

> يجـب على الولايـات المتحدة أن ترسـم خطاً عند نقطـة ما. هذا لا يتطابـق مع فكرتنا حـول أفضل الأوضاع. فلسنا الذيـن اختاروا هذه الأزمة. لكن ينبغـي علينا التحرك تبعاً لمقتضياتها الآن وبشكل حازم(4).

شمـل ما لدينا من القوات المتوفرة لإنقاذ السفينـة، حاملة الطائرات «كورال سي»، التي تبعد مسافة يومين أو ثلاثة، وحاملة مساعدة هي «هانكوك»، التي تخضع لعملية إصلاح في خليج سوبيك في الفليبين، ويمكنها الوصول إلى المنطقة بخلال نفس المدة تقريباً. أما المدمرة «هولت» فهي قادرة على الوصول إلى المنطقـة فـي وقت أبكر بأربع وعشرين ساعة (صباح الأربعاء بتوقيـت واشنطن). ويمكن لمشاة البحرية (المارينز) الانتقال من أوكيناوا إلى تايلند.

لكن ميراث الانهيار في الهند الصينية أرهقنا ووضع أمامنا عدة عقبات أيضا: كانت تايلند قد طلبت منا إخلاء قواعدنا، والفليبين سترفض السماح باستخدام القواعد الجوية الأمريكية للقيام بعملية إنقاذ ـ على الأقل بالنسبة للقوات البرية والجوية. فإن طلبنا الإذن، فسوف تتعاظم الضغوط ـ القوية أصلاً ـ من أجل طردنا من هناك على الفور. ولذلك دخلت قاذفات «ب52» المتمركزة في غوام إلى قائمة الخيارات؛ فهي جاهزة للعمل، ويمكن استخدامها بدون الحصول على إذن من أية دولة أخرى.

لـم يتخذ فورد قراراً حول العمل العسكري الـذي كان يخطط له، لكنه لم يترك أدنى شك بحقيقة أنه لن يقبل بإطالة أمد أسر الرهائن:

> بخـلال ساعـة أو نحوها، سنصدر بياناً علنياً. دعونا نصـدر البيان في وقت مبكر، يكون شديـد اللهجـة أيضا بحيث نأخذ زمام المبـادرة. لن نخبر الكونغرس بأننا سنقوم بأي

(*) في ذلك الوقت، كانت الحاملة (كورال سي) متجهة إلى أستراليا للقيام بزيارة مجاملة.

عمل عسكري نظراً لأننا لم نقرر بعد. أعتقد بأن من المهم إصدار بيان قوي قبل أن تذيع الأخبار بشكل آخر.

أمـر الرئيس البنتاغون بتقديم قائمة بالخيـارات العسكرية المتاحة قبل المغرب، وأضاف وهـو يتوقع إحجاماً وتـرددا وتأخيراً: «يمكنني أن أؤكد لكم بأننا سنتحرك بغض النظر عن رأي الكونغرس». وقدم فورد الحجة على أن الرئيس، باعتباره القائد العام للقوات المسلحة، له حقوق متأصلة في صلب منصبه بإنقاذ المواطنين الأمريكيين ـ خصوصاً حين يتعرضون للخطر من قبل جماعة لها تاريخها الإجرامي المعروف مثل الخمير الحمر.

فـي الساعة الواحدة وخمسين دقيقة بعد الظهـر، أصدر السكرتير الصحفي رون نيسين البيان التالي من قاعة المؤتمرات الصحفية في البيت الأبيض:

علمنـا أن سفينة تابعة للبحرية الكمبودية قد احتجزت سفينة تجارية أمريكية في البحار المفتوحة، وأجبرتها على التوجه إلى ميناء كومبونغ سوم. اجتمع الرئيس مع مجلس الأمن القومـي. وهو يعتبر احتجاز السفينة عملاً من أعمـال القرصنة. كما أصدر تعليماته إلى وزارة الخارجية للمطالبة بإطلاق سراح السفينة فوراً. أما الامتناع عن ذلك فسوف يؤدي إلى أشد وأخطر العواقب[5].

إن التوقيـت غيـر العادي لإصـدار البيان مـرده إلى حقيقـة أن المراسليـن الصحفيين استنتجـوا، بحلول الوقت الذي انفض فيه اجتماع مجلس الأمن القومي، أنه لم يجد شيء يستحق تأجيل طعام الغداء من أجله. لذلك اتخذ نيسين هذه الخطوة غير العادية بدعوة أكبـر عدد ممكن مـن الصحفيين، وتوزيع البيـان حالما حصل على النصـاب، وبالتالي ضاعف نبرة الإنذار المتوعدة في البيان[6].

بحلـول ذلـك الوقت، كنت على متـن طائرة متوجهة إلـى سنت لويس، ولهـذا تمت إدارة المراحـل الأولى من الأزمة بواسطة برنت سكوكروفت. وكانت زيارتي إلى كل من مدينتي سنـت لويس وكانساس قد أُعدت باعتبار أنها جزء مـن الجهد الذي بذلناه لمحاولة بناء إجمـاع جديد يـؤازر دور أمريكا الدولي في أعقاب الحرب في الهند الصينية. في كل من المدينتين، نظم لي برنامج لإلقاء خطاب رسمي، وعقد مؤتمر صحفي، ولقاء مع الزعماء المحلييـن، ومقدمـي البرامج التلفازية المحلية. أما الموضوع فـكان يدور حول بقاء دور أمريـكا القيـادي بمثابـة المفتاح للسـلام والتقدم كليهمـا، كما عبرت ـ بـدون اتهامات مضادة ـ عن ثقة الرئيس فورد وثقتي شخصياً، بأننا قادرون على إنجاز المهمة الموكولة لنا بالرغم من كل النكسات والكبوات.

إن ألغيت زيارتي الأولى من هذا النوع بسبب أزمة أخرى في الهند الصينية، فقد أنقل رسالة مفادها أن كابوس جنوب شرق آسيا لن ينتهي أبداً. ونظراً لحاجتنا لوقت من أجل حشد وتركيز قواتنا وانتظار جواب الصين، فإن القرار لن يتخذ قبل عودتي أي بعد ست وثلاثين ساعة من هناك.

في الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر، نقل أنغرسول، مساعد وزير الخارجية ـ الذي يتولى المنصب في غيابي ـ رسالة إلى هوانغ جين، رئيس مكتب الارتباط الصيني (السفارة الصينية في واقع الأمر)، تطالب بإطلاق سراح الـ«مايا غويز» وطاقمها على الفور. رفض هوانغ جين قبول الرسالة، مصراً على أن حكومة الخمير الحمر الجديدة حكومة مستقلة، ذات سيادة، ولا تخضع للديبلوماسية الصينية. ولم يكن من المفاجئ لي أن ينأى ديبلوماسي صيني متمركز في واشنطن بنفسه عن مسؤولية التورط بنقل رسالة حول قضية على هذه الدرجة من الحساسية والدقة، ولم يتلقَ حولها أية تعليمات. لكنه مضطر لإعلام حكومته بالمحاولة، وتنبيه بكين إلى وجود أزمة تتفاقم على مقربة منها.

نظراً لتوقعي ردة فعل هوانغ جين مسبقاً، طلبت من جورج بوش، رئيس مكتب الارتباط الأمريكي في بكين، نقل نفس الرسالة إلى وزارة الخارجية الصينية والسفارة الكمبودية هناك. كما تلقى التعليمات بتصعيد حدة خطابه درجة أخرى، وذلك بإضافة ما يلي «ملاحظة شفوية» غير رسمية:

تطالب حكومة الولايات المتحدة بإطلاق سراح السفينة والطاقم بأكمله على الفور. وإذا لم يحدث ذلك فوراً، فسوف تتحمل السلطات في بيونغ يانغ مسؤولية العواقب.

في الأعراف الديبلوماسية، يعني تحميل مسؤولية العواقب رجحان كفة العمل العسكري؛ أي أقرب الأشياء إلى الإنذار النهائي.

في سنت لويس وكانساس، التزمت بالتصريحات العمومية حول قضية الـ«مايا غويز»، بحيث تعني أننا نترك الفرصة للديبلوماسية، لكن إخفاقها ستترتب عليه عواقب وخيمة. كانت واشنطن هادئة ساكنة في انتظار طلوع النهار في آسيا ـ بضع ساعات ـ والتقارير التي سترد من طائرات الاستطلاع. خلال فترة الانتظار تلك، ألقيت خطاباً (مساء الثاني عشر من أيار/مايو) أمام مجلس الشؤون الدولية في سنت لويس. وثبت أن الزيارة قد أظهرت واحدة من أعظم حملات التشجيع والتأييد التي تلقيناها في تلك الحقبة. لقد غادرت عاصمة ما زالت تعيد وتكرر المجادلات المألوفة حول فيتنام. أما هنا في عمق البلاد في سنت لويس، فقد بدا واضحاً أن المرارة لم تنتشر فيما وراء الطرق السريعة المحيطة بالمناطق الحضرية. ففي صميم ما يعرف ببؤرة الانعزالية الأمريكية، لم يفقد الحاضرون على ما بدا واضحاً

الإيمـان بأهداف بلادنا. وكانت ردة فعلهم مشجعة تماماً حيـن عاودت التأكيد على الالتزامات الأمريكية ودعوت إلى الوحدة الوطنية:

.. دعونـا لا ننسـى أبداً بأننا، تبعاً لكل المقاييس، قدمنـا طيلة الثلاثين سنة الماضية ما لم تقدمه أية أمة أخرى في التاريخ. ونجحنا في مقاومة تهديدات خطيرة داهمت النظام العالمي من جانب أولئك الذين أرادوا تغييره بطرائق، كانت ستؤدي إلى نتائج غير مقبولة بالنسبة للحكومات الديمقراطية. فقد زودنا الآخرين بمعونات اقتصادية فاقت ما قدمته أيـة دولة أخرى. إذ أسهمنا بمزيد من الغذاء، وقدمنـا التعليم لمزيد من مواطني الدول الأخـرى، ورحبنا بمزيد من المهاجريـن. لم نفعل ذلك بدافع الـروح السخية الكريمة ـ رغـم أننـا لا يجب أن نعتذر عـن هذه الخصلة – لكن قبل كل شـيء لأن الشعب الأمريكي عـرف، بعـد أكثر من قرن من العزلـة، أن مساعدة الآخرين ليست منـة تمنح، بل خدمة يجب أن تقدم من أجل الاستقرار العالمي وفي سبيل مصلحتنا الذاتية.

مـن أجل صالحنـا وصالح بقية البشر دعونـا الآن نتأكد من أن هـذا الدرس لا ينبغي أن نتعلمه مرة أخرى[7].

أظهـرت الشخصيات المحلية البارزة بين الحضور كرماً كبيـراً لشخص ارتبط بهذه الدرجة الوثيقة والعلنية بمأساة الهند الصينية. وفي الحقيقة، تغير موقفهم رأساً على عقب. فقد أتيت حاملاً رسالة أمل؛ وبدلاً من ذلك، كنت أنا من عاد وقد جدد الثقة بوطنه.

كيف نحرر السفينة؟

فـي هذه الأثناء كانـت واشنطن تمر بفترة عصيبة، وتجـد أن معرفة ما يجـري للسفينة أشد صعوبة مـن تحديد طبيعة الفعل والتصـرف ـ أو، بدقة أكبر، كان من المتعذر صياغة طريقة هادفة للتصرف في غيـاب المعلومات الاستخبارية الدقيقة. فـي الثاني عشر من أيار/مايو، وفي الساعة التاسعة وست عشرة دقيقـة ليـلاً بتوقيت واشنطن (أو 8:16 من صبيحة يوم 5/13/ فـي كمبوديا)، علم سكوكروفت أن طائرة استطلاع تابعة للبحرية من طراز ب ـ3، كانت تحلق على ارتفاع منخفض بما يكفي لقراءة اسم السفينة، قـد عثرت على الـ «مايا غويز»، فأطلقـت النار عليها وأصيبت بأضرار طفيفة. تبين أن السفينة لم تكن في مينـاء كومبونـغ سوم ـ كما قيل لفورد قبل تسع ساعات ـ لكنها متوقفة في نفس الموقع الذي احتجزت فيه تماماً، مقابل ساحل جزيرة بولو واي. وبعد ساعة، تلقى سكوكروفت تقريراً يشير إلى أن الـ«مايا غويز» قد رفعـت مرساتها. وكررت جماعة الاستخبارات، نظراً لأن أفرادها يكرهون التخلي عن أفكارهم المسبقة، حكمهـا الأصلي ـ والخاطئ ـ الـذي أصدرته في اليوم السابق: السفينة متجهة إلى كومبونغ سوم وستصل هناك بخلال ست ساعات.

طلب سكوكروفت إعلامه حالما تبدأ السفينة بالتحرك فعلاً. في الساعة 2:23 حين لم يسمع خبرا منذ أربع ساعات تقريبا، استفسر عن الأمر فقيل له: إنها تبعد الآن مسافة تتراوح بين خمس عشرة دقيقة وساعة واحدة عن ميناء كومبونغ سوم ـ أي نفس التقدير للمسافة حين بدأت الأزمة. وعند سماعه هذا الخبر، فقد سكوكروفت أعصابه – وهذه سابقة لم تحدث قبلاً ـ وسرعان ما انضم إليه فورد الذي أغضبه أيضا ضياع عدة ساعات ثمينة كان يمكن خلالها للطائرات المتمركزة في تايلند أن تعترض الـ«مايا غويز». فأمر فورد الطائرات المقاتلة بإيقاف السفينة حتى في هذه الساعة المتأخرة.

لكن آسري السفينة استطاعوا مجدداً إحباط توقعات المحللين في الاستخبارات. فبعد ساعات من البحث، عُثر على الـ«مايا غويز» في نهاية المطاف راسية قبالة كوه تانغ، وهي جزيرة تبعد أربعة وثلاثين ميلاً إلى الجنوب الغربي من كومبونغ سوم. ومع كل تقرير جديد كان سكوكروفت يوقظ الرئيس؛ تلقيت تقريراً موجزاً عن أحداث تلك الليلة في صبيحة اليوم التالي، الثالث عشر من أيار/مايو، وأنا في سنت لويس.

في الساعة 10:20 من صباح الثلاثاء 5/13، اليوم الثاني من الأزمة، دعا فورد مجلس الأمن القومي لعقد جلسة أخرى. إذ لم يصدر الخمير الحمر أي بيان رغم مرور إحدى وثلاثين ساعة على احتجازهم للسفينة، ولم يردوا على رسالتنا. نفس المجموعة السابقة حضرت الاجتماع باستثناء حضور جوزيف سيسكو، مساعد وزير الخارجية للشؤون السياسية، ليمثل وزارة الخارجية في غيابي، ومعاوني فورد، جاك مارشال وبوب هارتمان، اللذين انضما للاجتماع. بعد أن قدم كولبي عرضاً لمختلف جوانب القضية، اشتكى روكفلر من التقارير الاستخباراتية المتضاربة وغير الدقيقة، وأثار فورد أسئلة تتعلق بتأخير ورود المعلومات عند كل مرحلة من مراحل الأزمة. بقي الهدف الرئيسي في ذهن الجميع متمثلاً في عدم تكرار حادثة «بويبلو». لكن ذلك لن يتم إلا إذا منع الخمير الحمر من تحويل أفراد طاقم السفينة إلى رهائن. وطلب روكفلر بإلحاح أن نعزل جزيرة كوه تانغ على أقل تقدير:

أعتقد بأننا يجب أن نرد بسرعة. فكلما انتظرنا فترة أطول، أتيحت لهم الفرصة ليستعدوا أكثر. لمَ لا نغرق قواربهم ونجبرهم على التحرك؟ حالما يمسكون بالرهائن يمكنهم أن يلووا ذراعنا طيلة شهور قادمة، وإذا ما قمنا بعملية إنزال على الشاطئ فسنفقد عدداً أكبر من «المارينز» مقارنة بعدد الأمريكيين الموجودين على متن السفينة أصلاً. لمَ لا نغرق سفنهم ونجبرهم على الاستجابة؟

شلسنغر، الصارم دوماً عندما يتعلق الأمر بقضايا تحديد التسلح، تردد في قبول العمل العسكري. صحيح أنه أيد استخدام القوة لمنع الـ«مايا غويز» من مغادرة الجزيرة إلى الميناء، لكنه عارض إغراق القوارب الكمبودية لأن ذلك قد يؤذي الطاقم، ولأن الخمير الحمر قد يردون بإغراق السفينة. أما قرارات فورد فكانت حادة وجازمة:

أولاً، نستخدم الطائرات لمنع أي قارب من مغادرة الجزيرة. لن تغرقوها بالضرورة، لكن بمقدوركم اتخاذ بعض الإجراءات الوقائية.

ثانياً، أعتقد بأن عليكم منع القوارب كافة من القدوم إلى الجزيرة.

ثالثاً، أعتقد بأن علينا أن نستعد للنزول على السفينة غداً صباحاً.

بعد ذلك أمر فورد بنقل كتيبة إنزال من «المارينز» من اوكيناوا إلى أوتاباو (تايلند) عن طريق الجو، وبتحرك حاملة الطائرات «هانكوك» من خليج سوبيك إلى السواحل الكمبودية.

أذكر هذه الآراء المتبادلة لأنها فجرت ـ في غيابي ـ أزمة ثقة جديدة بين الرئيس ووزير دفاعه، أزمة ستبلغ أوجها بعد خمسة أشهر حين أقيل شلسنجر من منصبه. كانت الروح المعنوية للبنتاغون إحدى الخسائر المؤلمة التي سببتها حرب فيتنام. أما فكرة العودة للتورط في الهند الصينية بعد أسبوعين فقط من الجلاء عن سايغون فقد أثارت ردات فعل قوية من النفور والمعارضة. وحين يفتقد البنتاغون الحماسة، فإنه لا يعيد تفسير الأوامر ـ كما تفعل المؤسسات الرسمية المسؤولة عن الديبلوماسية الخارجية ـــ بل ينفذها حرفيا دون القيام بأية مبادرات إضافية من جانبه. ونظراً لتعقيد عملية نشر القوات المسلحة، فإن التأثير العملي يماثل التسويف والتأجيل. لقد قام البنتاغون طيلة أزمة الـ «مايا غويز» بأداء واجبه الكامل في تجميع وحشد القوات تبعاً للأوامر التي تلقاها. لكن بدا من الواضح أنه كان متردداً، ولم يقدم أية أفكار خاصة به، وترك الأمر للمدنيين كي يحفزوه على العمل، وعارض المسؤولون فيه بشكل آلي ـــ وهم يتذكرون صرخة الغضب والاحتجاج العارمة بعد قصف قاذفات «ب52» لمنطقة هانوي ـ استخدام القاذفات الاستراتيجية.

نتجت معظم الاتصالات المشوشة والمعلومات الاستخباراتية الطائشة وغير الدقيقة التي أصابت أزمة الـ«مايا غويز» ببلائها، من شكوك وزير الدفاع التي ضاعفت صدمة المؤسسة العسكرية والضرر الذي حل بها. وباستثناء كليمنتس، بدا البنتاغون مصمما بالأساس على عدم لعب دور الشرير مرة أخرى. أما غياب رئيس هيئة الأركان المشتركة (الذي كان في رحلة إلى أوروبا) فقد فاقم من حجم المشكلة لأن بدلاءه أحجموا عن الاتصال المباشر بالرئيس، وهذا حق مقتصر عليه بحكم القانون. في هذه الحالة، كانت قناة الاتصال الوحيدة بين البيت الأبيض والبنتاغون تمر عبر وزير دفاع، الذي اختلطت آراؤه وتناقضت حول استراتيجية الرئيس.

بحلـول اليـوم الثاني من الأزمة، وأنا مـا أزال في مدينة كنساس، تعاظم قلق فورد حين بـدا واضحـاً أن الأمـر المتعلق بمنـع أي قارب من مغـادرة/ أو الوصول إلـى كوه تانغ لم ينفـذ، ولربما يعود السبـب إلى حقيقة أن الليل قد خيّم على آسيـا عندما أصدر الرئيس أمـر محاصـرة الجزيرة، ولم يرد أي تقارير عن فعل إجرائي نتج عنه لمدة عشر ساعات تقريبـاً. أو ربمـا لأن الأوامـر المكتوبة لم ترسل مـن البنتاغون إلا بعـد أربع ساعات من صدور التوجيه الرئاسي. وزعم البنتاغون فيما بعد أنه لم يتلق التقرير الأول عن التحرك إلا في الساعة 10:8 من مساء يوم الثلاثاء الثالث عشر من أيار/مايو. فقد غادرت زوارق صغيـرة جزيـرة كوه تانغ باتجـاه البر الكمبودي. تـم إغراق أحدها، وعـاد الثاني، بينما تابـع الثالث طريقه بكامـل سرعته. طلب معـاون شلسنجر العسكـري، العميد جون إيه. ويكام (الذي أصبح فيما بعد رئيس هيئة أركان الجيش) تزويده بالتعليمات حول ما يجب عملـه مع القارب الثالث. لكن على ضوء تعليمات الرئيس الواضحة والقاضية بإغراق أية سفينـة تقتـرب من /أو تغادر الجزيرة، بـدا الطلب غير قابل للتفسيـر فيما عدا اعتباره منـاورة لتجنب تحمل المسؤولية واللوم إذا ما سارت الأمور على غير ما هو متوقع. تحقق سكوكروفت، الذي كان كعهده أبدا مدققاً بالتفاصيل، من الرئيس الذي أكد على توجيهاته الأصلية، وقال بحدة: «إذا لم نفعل ذلك فسيكون إشارة دالة على ضعف شديد».

بعـد ساعـة ونصف، 9,48 مسـاء (بتوقيت واشنطـن)، عاد ويكام باستفسـار جديد. إذ شوهـدت سفينة صغيـرة أخرى تغادر الجزيـرة باتجاه كومبونغ سـوم. وحين حاول أحد طيارينـا إيقافها بنيران مدفعـه، لاحظ خلال انقضاضه جماعة من «البيض» حشروا في مقدمتهـا. واعتقد الطيار، وهو يطلب التعليمات، أنهم جـزء على الأقل من طاقم سفينة «مايا غويـز» (تبيـن فيما بعد أنه أصـاب في اعتقاده). وحيـن أدرك فورد صحة مخاوف البنتاغـون، أمر بعقد جلسة لمجلس الأمن القومي في الساعة 10:40 ليلا، لمراجعة آخر تطورات القضية.

خـلال اليوم، وبالرغم مـن النبرة التهديدية المتوعدة لتصريحاتنـا العلنية، لم نتعرض لضغـوط كبيرة من الدول الأخرى للتراجع عـن موقفنا. فقد التزم حلفاؤنا الصمت، وإن شعروا ببعض الألم وهم يوازنون قلق الرأي العام الداخلي مقابل اعتمادهم على الحماية الأمريكية. وكما حدث، أتت أكثر التعليقات عوناً من الصين. فحين طلب من دينغ كسياو بينـغ، وهو في زيارة إلى باريس، أن يعلق على التهديدات الأمريكية، انفجر ضاحكاً: «إذا تدخلـوا، لا يمكننا فعل شيء». وعندما ضغط عليه الصحفيون، لم يلجأ حتى للتلميح بأن

الصيـن ستدعم الخمير الحمـر ولا حتى ديبلوماسياً. ورد دينغ بمرح: «معلوماتكم أحدث مـن معلوماتـي»[8]. بكلمات أخرى، كانت الصيـن قد «نفضت يدها» مـن المشكلة. وبقي الأميـر نوردوم سيهانوك، الـذي أعيد تعيينه للتو رئيساً للدولـة الكمبودية، لكنه ما يزال مقيماً في بكين، بقي صامتاً على غير العادة طيلة الأزمة.

عدت من منطقة الغرب الأوسط في الوقت المناسب لحضور هذا الاجتماع الثالث لمجلس الأمـن القومي حـول الأزمة. ضم الحضور من شاركوا فـي الاجتماعين السابقين إضافة إلى فيليب بوكين، مستشار الرئيس. وقد بدأ فورد الاجتماع بتوجيه انتقاد إلى الاتصالات البطيئة من جانب البنتاغون؛ ووصف التأخير في نقل أوامره (مكتوبة) بإغراق كل السفن التـي تقترب مـن / أو تغادر كوه تانغ بأنـه «لا عذر له». الإحباط الشديـد وحده هو الذي يفسـر الانتقاد الهادئ الذي كان فـورد يوجهه عادة إلى المؤسسـة العسكرية، المؤسسة التي احترمها حقاً والتي فخر بخدمتها كونه ضابطاً في البحرية.

الموضـوع الأول الذي طرح للنقاش تركز على القارب الـذي يحمل «البيض» وماذا يمكن أن نفعل بشأنه. فبحلول الوقت الذي اجتمع فيه مجلس الأمن القومي، وردت تقارير تشير إلـى أنـه على بعد ستة أميـال من كومبونغ سوم، أي أقل من نصـف ساعة ـ وبدا أن ذلك هـو مقياس الوقت المعياري للتقارير التي تنقل تحركات السفن كافة قرب كومبونغ سوم. الأمـر الذي لم يترك كثيراً من الوقت لاتخاذ قرار، ولذلـك أصدر فورد تعليماته بتعطيل المركـب الذي يرجح أن يحمل طاقم الـ«مايا غويز»، بواسطة قوات خاصة، في حين تغرق الزوارق السريعة المرافقة.

تأطـرت مداولات مجلس الأمـن القومي ضمن نطاق الانطباع بـأن المركب الذي يقترب مـن كومبونـغ سوم يحمل قسماً من الطاقـم (إن كان ذلك صحيحـاً) وأن البقية (وربما الأغلبيـة) مازالت في كوه تانغ. كنا ننزلق إلى وضـع استهلك فيه الرئيس ومجلس الأمن القومـي معظـم الوقت في اتخـاذ قرارات تتصل بحركـة زوارق فردية صغيـرة على بعد ثمانيـة آلاف ميـل. ومن أجل تجنب ذلك، أمر فورد بتدمير الـزوارق كافة قرب كوه تانغ، ممـا أوقف كل المحـاولات الرامية للعودة إلى التفكير بكل حالـة على حدة. وبهذا، أمكن لمجلـس الأمـن القومي التركيز في نهايـة المطاف على كيفية توليـد وممارسة الضغوط لإجبـار الخمير الحمر على إطلاق سراح الطاقـم والسفينة. عرض الجنرال جونز رسماً بيانيـاً يظهـر أن مشاة البحرية سيكونـون في المنطقة مع المدمـرة «هولت» بخلال أربع عشرة ساعة، وحاملتي الطائرات «كـورال سي» و«هانكوك» بخلال ثمان وعشرين ساعة،

أو في أصيل يوم الأربعاء الرابع عشر من أيار/مايو بتوقيت واشنطن. ولذلك أوصى جونز بتأخير القيام بأي عمل عسكري لمدة ثمان وأربعين ساعة ـ أي حتى أصيل يوم الثلاثاء ـ وبذلك يمكن تنسيق الأمور كافة.

رغب فورد في البداية بالاستيلاء فوراً على الـ«مايا غويز» والجزيرة من خلال عملية إنزال يقوم بها مشاة البحرية بواسطة الحوامات المنطلقة من القاعدة الأمريكية في أوتاباو (تايلند). وأجمع مجلس الأمن القومي على أنه من الأفضل عدم استشارة الحكومة التايلندية حول هذه الخطة، نظراً لأنها طلبت منا بعد سقوط سايغون ـ كما أسلفت ـ الجلاء عن قواعدنا بخلال سنة. ولسوف يرفض الطلب الرسمي حتماً، بينما سيؤدي القيام بالعملية من جانب واحد إلى اختصار هذه المدة في أسوأ الاحتمالات. وكنا على قناعة تامة بأنه مهما كانت احتجاجات أو ردات فعل التايلنديين فيما بعد، فإن القيادة التايلندية ـ وخصوصاً القيادة العسكرية ـ سوف ترحب بموقف حازم من جانب أمريكا.

ثبت أن رسم الاستراتيجية المناسبة لإنقاذ طاقم الـ«مايا غويز» أكثر إثارة للخلاف والجدل. فقد وافق الجميع على وجوب الاستيلاء على السفينة واحتلال جزيرة كوه تانغ، حيث اعتقدنا (مخطئين) بأن معظم أفراد الطاقم موجودون هناك. كما أيد فورد، مع معارضة شلسنجر وحده، القيام بضربات جوية ضد ميناء كومبونغ سوم. أحد الأسباب وراء ذلك فهو منع التدخل من البر في عملية الاستيلاء المقترحة على السفينة والجزيرة. أما الاعتبار الآخر هو معاقبة الخمير الحمر على أخذ رهائن أمريكيين. قدم شلسنجر الحجة على وجوب حصر عملياتنا العسكرية في نطاق تلك المتصلة مباشرة بتحرير الـ«مايا غويز» وطاقمها.

كانت الحجة صحيحة ومنطقية، وقدمها شلسنجر بحدة ووضوح. لكن الناطق باسمه، جوزيف ليتين، لم يفوت لسوء الحظ أية فرصة لتحويل الخلافات الصادقة في الآراء إلى عداء مستحكم بين وزيري الخارجية والدفاع. وتشبث كتاب الأعمدة الصحفية بوصف ما جرى بيننا من مداولات ونقاشات باعتباره محاولة كبح جماح «الدكتور الهائج» من قبل وزير الدفاع المترع بالمشاعر الإنسانية. وزعموا بأنني طالبت بقصف شامل غير محدود بواسطة قاذفات «ب52»، وذلك على العكس من شلسنجر الذي أيد رداً أكثر دقة يعتمد مبدأ «العين بالعين»[9].

لم تكن المسألة على هذا النحو أبداً. فقد تركز الجدل الحقيقي على توقيت الرد الأمريكي. إذ خلف البنتاغون لدينا انطباعا بأن حاملة الطائرات «كورال سي» لن تكون جاهزة للعمل إلا بعد ثمان وأربعين ساعة، وكان هذا برأينا جميعا، فيما عدا شلسنجر، يشكل خطراً كبيراً على سلامة الرهائن واحتمالات تحريرهم على المدى الطويل. ولذلك، فإن تم شن هجوم منسق بخلال أربع وعشرين ساعة، فلسوف تستخدم قاذفات «ب52» للهجوم على كومبونغ سوم. ذلك هو المدى الذي وصل إليه نقاش مجلس الأمن القومي فيما يتعلق

باستخدام هذه القاذفات. أعرض هنا النص الحرفي لما دار في ذلك الاجتماع كي أتيح للقارئ تقدير حجم الهوة الفاصلة بين المناقشات السياسية الفعلية وبين تقديمها على الملأ لأغراض العلاقات العامة:

كيسنجر: أعتقد بأن علينا، حينما نتحرك، أن نضرب البر إضافة إلى الجزيرة. إذ يجب أن نضرب أهدافاً في كومبونغ سوم والمطار، ونعلن أننا نفعل ذلك لمنع قدوم أية قوات تعرقل عملياتنا الهادفة لاستعادة السفينة والاستيلاء على الجزيرة.

إن أمكن لقاذفات «ب52» القيام بالمهمة، فأرغب في أن تقوم بذلك ليلة الغد. ثمان وأربعون ساعة مدة أفضل من وجهة النظر العسكرية. لكن يمكن أن يحدث خلالها الكثير، على المستويين المحلي والدولي. يجب أن نكون مستعدين للاستيلاء على الجزيرة والسفينة وضرب كومبونغ سوم.

فورد: أعتقد بأن علينا أن نكون مستعدين للتحرك بخلال أربع وعشرين ساعة. لكن ربما نرغب بالانتظار.

شلسنجر: سنكون مستعدين للتحرك في صبيحة الخامس عشر. وسنرى إن كان بمقدورنا نقل المارينز والحاملة «هولت». ومع أول ضوء، سيكون لدينا خطط للنزول على الجزيرة. وفي ذات الوقت، سوف ننقذ السفينة.

سوف نجهز قاذفات «ب52» في غوام لقصف كومبونغ سوم. لكن أعتقد بوجود مزايا سياسية في استخدام طائرات الحاملة «كورال سي». ولسوف تواجهون مزيداً من المشكلات في الكونغرس إن استخدمتم قاذفات «ب52» المتمركزة في غوام.

روكفلر: لماذا؟

شلسنجر: تعتبر قاذفات «ب52» علماً أحمر في الكونغرس. علاوة على أنها تقصف مساحات واسعة جداً وليست دقيقة كثيراً في إصابة أهداف محددة. وقد ينتج عن قصفها الكثير من الضحايا خارج المنطقة التي نريد إصابتها.

فورد: دعونا نرى ما يقوله قادة القوات المسلحة ونعرف منهم هل من الأفضل استخدام الطائرات من الحاملة أم قاذفات «ب52».؟ إنه حكمهم هم.

باختصار، لم يكن الفارق الأساسي متمثلاً في الاختيار بين الأسلحة، بل في الضرورة الملحة للقيام بعمل عسكري بخلال أربع وعشرين ساعة.

عند هذه النقطة، وجد دونالد رمسفيلد (طيار البحرية السابق) حلاً للمعضلة العويصة عبر إثارة سؤال لم يتكلف عناء طرحه أحد: «ألا يمكن أن تقصف طائرات الحاملة «كورال سي» كمبوديا حتى حين ما

تزال على بعد ساعات منها؟». من المدهش عدم طرح هذا السؤال طيلة يوم كامل من الجدل حول توقيت الهجوم. قال شلسنجر: إنه سيتحقق من الأمر ويعمل على أن تكون الحاملة ضمن المدى المجدي بخلال الساعات القليلة القادمة. ولم يتطوع أحد من وزارة الدفاع لتقديم هذه المعلومات.

أدى سؤال رمسفيلد إلى صدور قرار رئاسي خطي بإجماع مجلس الأمن القومي. وحين انفض الاجتماع في الساعة 12:30 بعد منتصف ليل الأربعاء 5/13، أجّل فورد الاستيلاء على الـ«مايا غويز» لمدة أربع وعشرين ساعة. لكنه لن يقبل أي تأخير بعد ذلك؛ فعند انتهاء الساعات الأربع وعشرين يجب الصعود إلى السفينة، واحتلال كوه تانغ، وقصف البر من الجو. ولم يترك الرئيس سوى أسلوب قصف ميناء كومبونغ سوم (قاذفات «ب52»، أو طائرات تنطلق من الحاملة «كورال سي») بدون تحديد حتى الصباح. بعد الاجتماع، أثبت فورد أنه تعلم الكثير عن البيروقراطية، رغم أنه لم يمض في المنصب سوى أقل من عشرة شهور. أخبرني بأنه يفضل استخدام طائرات الحاملة، لكنه أبقى خيار قاذفات «ب52» متاحاً ليزود البنتاغون بكل حافز يدفعه للتأكد من وصول «كورال سي» في الوقت المحدد.

ظل فورد على رأيه حين قابلته، في الساعة 11:45 من صباح الأربعاء 5/14، للتحضير لاجتماع مجلس الأمن القومي بعد الظهر، حيث سيتخذ القرار النهائي فيما يتعلق باستخدام طائرات الحاملة أم قاذفات «ب52». قال: إنه يفضل استخدام طائرات الحاملة إذ أقنعه البنتاغون بأنها تمتلك القدرة على شن هجمات مؤثرة منها.

فورد: يقلقني التباطؤ في تنفيذ الأوامر. إذ يمكنني إصدار الأوامر كافة، لكن إن لم يتم تنفيذها.. كنت في حالة غضب شديد بالأمس.

كيسنجر: هذه أزمتك الأولى. يجب أن تشتهر بالحزم والصلابة.. أرى الحجج المقدمة ضد استخدام قاذفات «ب52».

فورد: أعتقد بأن علي القول بأنني أؤيد استخدام القاذفات الاستراتيجية إلا إذا أظهروا لي قدرة الطائرات التكتيكية على القيام بنفس المهمة.

كيسنجر: تلك طريقة جيدة للتعامل مع المشكلة. سيكون الثمن ذاته. فإن استخدمت القوة فيجب أن تكون ماحقة ساحقة.

كلما كان العمل العسكري محتوماً، وضعت وزارة الخارجية «سيناريو» ديبلوماسياً يصاحبه. وخلال الفترة التي سبقت انعقاد مجلس الأمن القومي، طلب من السفير سكالي تسليم رسالة إلى الأمين العام للأمم المتحدة كورت فالدهايم، تدعو إلى اعتبار احتجاز الـ«ماغويز» عملاً غير قانوني ويشكل تهديداً للسلام العالمي ـ وهذا تحذير واضح من أن اللجوء إلى القوة أمر وشيك. مازلنا نسعى لتحرير السفينة

والطاقـم عبر القنوات الديبلوماسيـة، كما أشارت الرسالة؛ ولسوف نرحـب بمساعدة فالدهايم. لكن إن فشلـت الجهود الديبلوماسية، فإن الولايات المتحدة تحتفظ بحقها في اتخاذ الخطوات المناسبة، بما في ذلك الإجراءات المتعلقة بالدفاع عن النفس تبعاً للمادة 51 من ميثاق الأمم المتحدة.

بقيت البيئة الدبلوماسية مطمئنة؛ فقد بدا آنئذ بشكل أكثر وضوحاً أن الخمير الحمر لن يتلقوا الدعم مـن أية دولـة ـ خصوصاً مـن الصين. في صبيحـة الرابع عشر مـن أيار/مايو، تلقينا تقريـرا يفيد بأن دبلوماسيـاً صينيـاً في طهران، قد توقـع إطلاق سراح السفينة والطاقم «في وقـت قريب». كانت الصين، وقد شعرت بـ «الإحراج» نتيجة احتجاز الـ «مايا غويز»، تستخدم نفوذها لتأمين تحرير السفينة، وذلك تبعاً لأحـد الديبلوماسييـن. هذا الرأي الـذي نسب إلى الصين ـ لربما كان بمثابـة تلميح ماكر يشير إلى عدم وجـود ضـرورة للعمل العسكري ـ أثبت مراوغتـه الماكرة. إذ لم ينقل مباشرة إلـى الولايات المتحدة، بل أتى عن طريق ديبلوماسي باكستاني ثانوي في طهران، نقل المعلومات إلى موظف في السفارة الأمريكية. لـم يحـدد الباكستاني اسم مصدره. وبدت لنا هـذه المعلومات، بكل ما فيها مـن تعذيب وتشويق، جزئية ومتشظيـة وغيـر كاملة بحيث لن ندعهـا تؤثر في قراراتنا. ولو تصرفنا تبعـاً لتلميح «في وقت قريب» فقد يتبيـن لنـا أنه مدة طويلة جداً. في وقت لاحق من ذلك اليـوم، تلقينا رسالة مبهمة لكنها مفيدة، من بكين مباشـرة. فخـلال فترة ما بعد ظهر يوم الرابع عشـر من أيار/مايـو، ردت وزارة الخارجية الصينية على مذكرتنـا فـي اليوم السابق، مشيرة إلى أنهـا ليست في موقع يؤهلها لنقلها إلـى الحكومة الكمبودية. لكن حقيقـة أن الصينييـن قد احتفظـوا بالرسالة لمدة أكثر مـن ثلاثين ساعة (على العكـس من ممثلهم في واشنطـن الذي رفض صراحة قبولها) تتضمن أنهم يقومون بدراستها. وأن عدم اعتراض الصين رسمياً علـى محتواها، لاسيمـا التهديد باستخدام القوة فيها، إضافة إلى تعليقات دينغ اللامبالية في باريس، كل ذلك جعل الخمير الحمر يقفون لوحدهم في الميدان.

الاجتمـاع الرابع لمجلس الأمن القومي بخلال يومين اثنين استمر من الساعة 3:52 إلى الساعة 5:42 من بعد ظهر الرابع عشر من أيار/مايو، واقتصر على اتخاذ قرارات نهائية حول الخيارات العسكرية. بدأ كولبي الاجتماع بعرض للوضع والمعلومات الاستخباراتية، مشيراً إلى أن بعض أفراد الطاقم قد نقلوا إلى البر الكمبودي ـ رغم أن الغالبية مازالت محتجزة (كما يعتقد) على جزيرة كوه تانغ. الحكومة التايلندية، كما قيل لنا، تنأى بنفسها عن الأمر، رغم أن قائد الجيش التايلندي قد أخبرنا في السر أنه «مسرور جداً» لأننا نتخذ إجراءات حاسمة.

عرضـ الجنرال جونـز توصيات هيئـة الأركان المشتركة: إذ ستقوم مفرزة محمولـة بالاستيلاء على الـ«ماغويـز»؛ وسيقوم المارينز بعملية إنزال على جزيرة كوه تايغ لإنقاذ أفراد الطاقم الذين يعتقد بأنهم محتجزون هناك؛ وستنطلق الطائرات من الحاملة «كورال سي» لمهاجمة الأهداف على البر الكمبودي، لا

سيمـا المطارات ومنشآت الميناء في كومبونغ سوم. ومن أجل الالتزام بالموعد المحدد لعمليات الإنزال، يجـب إصدار الأمر «نفذ» بخلال أربع وعشرين ساعة ـ وهذه إشارة مراوغة تدل على أن البنتاغون يفضل التريث.

بغضـ النظر عن المناورات البيروقراطية، كان أداء البنتاغون التقنـي مؤثراً. فبخلال ثمان وأربعين ساعـة، تم نشر حاملة للطائـرات، ومدمرتين، وألف من المارينز؛ وهناك حاملـة طائرات إضافية يتوقع وصولها بعد يوم إلى منطقة لم نفكر من قبل باتخاذ أي عمل عسكري فيها. كما أن قاذفات «ب52» وضعت فـي حالـة تأهب، في حين كانت الطائرات التكتيكية تغطي المنطقـة ـ لا تملك أية دولة أخرى القدرة على القيام بعملية حشد للقوات بمثل هذه السرعة.

تجاهـل فورد طلـب جونز بتأخير الرد وأمـر بتنفيذ العمليات الثـلاث فوراً، إضافة إلـى القيام بأربع ضربـات جويـة ضد أهداف على البر الكمبـودي إنطلاقاً من حاملة الطائرات «كـورال سي». وحين تذكر قلقـه مـن تصميم البنتاغـون، أضاف فورد بأن الغـارات الجوية «يجب ألا تتوقف حتـى نأمر بذلك». كان الأدميـرال جيمس الهولـواي (الثالث)، رئيس العمليـات البحرية، يغادر الغرفة بيـن الحين والآخر لنقل القرارات لحظة صدورها.

فـي الساعـة 6:30 مساء، قام فورد (يصاحبه شلسنجر وأنا) بعرضـ الوضع أمام زعماء الكونغرس. وقـدم توصيفاً مفصلاً بالأسبـاب الداعية للعمل العسكري. ولم نتلق طيلة أكثـر من ستين ساعة أية كلمة مـن الخمير الحمر، أو من أي طرف يتحدث باسمهـم، ولا يمكن لفورد أن يقبل بمخاطرة السماح بتحويل أفراد الطاقم إلى رهائن.

لـم يكن زعماء الكونغرس متحمسين. فالسيناتور مايك مانسفيلد مثلاً أراد أن يعرف «لماذا سنذهب مـرة أخرى إلى البر الآسيـوي، خصوصا في الوقت الذي أصبحت فيه السفينـة في قبضتنا من جديد؟». حتى السيناتور الشجاع المتحمس عادة، جون مكليلان، عبر عن قلقه من مهاجمة البر الكمبودي. أما رئيس الكونغرس توماس بي. اونيل، فقد أشار ضمناً إلى أن السفينـة «مستأجرة من قبل البنتاغون»، وكأن ذلك يغيـر حقيقـة أنها اختطفت في البحار الدولية؛ واستمر في تذمـره المتحفظ حتى بعد أن أكد له شلسنجر أن مخاوفه لا أساس لها. واشتكى السيناتور روبرت بيرد من عدم كفاية الاستشارات والمشاورات. وجرى نقاش بين فورد وبيرد، اتهم فيه فورد في واقع الأمر زعماء الكونغرس بأنهم يسربون الأخبار، وهذا يوضح أن طبيعة الرئيس التصالحية لا تحول دون حزمه وصرامته:

> السيناتـور بيـرد: دعني بكل احتـرام أشدد على هذا. أعـرف بأنك تفعل مـا تعتقد بأنه الأفضـل، وأنا بالتأكيد لا أناقش سلطتك للقيام بذلك، لكن أريد أن أعرف لماذا لم يعلم زعماء الكونغرس مقدماً بقرارك؟

فورد: لدينا «نظام» حكم قائم على فصل السلطات. إذ للرئيس الحق والسلطة بالتصرف. لـدي التـزام وتعهد بالتصرف. فقـد عشنا تبعاً لقانون سلطات الحـرب. قد نختلف على الأحـكام والقرارات، لكنني لـن أسامح نفسي أبـداً إذا تركت مشـاة البحرية يتعرضون لهجوم 2400 جندي كمبودي (عدد جنود الخمير الحمر في كومبونغ سوم تبعاً للتقديرات الاستخباراتية).

تحرير الـ «مايا غويز»

نهايـة اللقاء مع زعماء الكونغرس لشرح موقف الإدارة، واكبت اقتراب واحدة من أشد الأمسيات التي عرفتهـا تجربتـي في الحكم غرابة وتوتراً. فقد كان من المقرر إقامة عشاء عمل لرئيس الوزراء الهولندي يوهانس دين أويل، وحدد الموعد في تلك الأمسية منذ أسابيع عديدة. الرئيس فورد لم يكن راغباً بإحراج ضيفه، فقرر عدم إلغاء حفل العشاء رغم بدء العمليات العسكرية في النصف الآخر من الكرة الأرضية.

تبيـن أن عدم إلغـاء الحفل كان مبالغة متطرفة في التشبث بالكياسـة ومراعاة الذوق. فالعشاء الذي أعـد ليكون حفلاً بملابس السهرة الرسمية (ولا أحد يعرف لمـاذا؟)، تأخر لمدة نصف ساعة. ومن بين المدعوين الأمريكيين، حضر سكوكروفت ورمسفيلد بشكل رمزي؛ ولم أتمكن أنا إلا من تناول صنف واحد مـن الطعام المكون من عدد مـن الأصناف المتتابعة؛ شلسنجر وصل متأخراً وبقي حتى قدمت الحلويات. فـورد ظل يغـادر القاعة باستمرار لتلقي أخر التقارير العسكرية في غرفـة الحاجب المجاورة لقاعة حفل العشاء الرسمي.

لـم يكن دين أويل ضيفاً مثالياً يرغـب صناع القرار السياسي الأمريكيون، المنشغلون بمراقبة العملية العسكريـة، بقضـاء الأمسية معه. ونظـراً لأنه من الجناح المعارض للحروب في حـزب العمال الهولندي، فقد كان حماسه لأي نشاط عسكري في الهند الصينية صامتاً على أقل تقدير. إذ نصحه مستشاروه على ما يبدو بتجنب الأساليب الاستفزازية، لكنه لم يلتزم بالنصيحة قط. ففي فترات الراحة، لم يستطع منع نفسـه من التأكيـد بأسلوب الأستاذ لطلابه بأنـه لا يصدر أحكاماً على أية عمليـة عسكرية محددة، لكنه مـن حيث المبدأ لا يعتبر القوة العسكريـة الطريقة المناسبة لحل المشكلات السياسية. كان تعليقاً غريباً مـن ممثـل لدولة حليفة في «الناتو» تعهدنـا بالدفاع عنها. ولم يكن متساوقاً مع أفـكار هولندا. فدين أويل لـم يتعطف نهائياً ولم يحدد لنا ماهية الطرائـق الأخرى التي يمكن أن تقنع الخمير الحمر بإطلاق سراح الرهائن.

لـم يكن الذين يحاورون دين أويل علـى استعداد للتفكير بآرائه النبيلـة وأحكامه الأخلاقية السامية، فقـد كانوا منهمكين بمراقبة وتوجيه العمليات العسكرية على ثلاث جبهات مختلفة: أي استعادة السيطرة علـى الـ«مايا غويز» من جديد، والإنزال على جزيرة كوه تانغ، والغارات الجوية على البر الكمبودي. وصلت

المعلومـات عن كل عملية إلى واشنطـن عن طريق قنوات مختلفة: من «المارينز» بالنسبة لعملية كوه تانغ؛ ومن القوات الجوية فيما يتعلق بالدعم التكتيكي؛ ومن البحرية بالنسبة لكومبونغ سوم.

عمليـة الاستيلاء علـى الـ«مايا غويز» سـارت على ما يرام. فمفـرزة من المارينز علـى متن المدمرة «هولت» استولت على السفينة. لكن لم تعثر على أفراد الطاقم.

لكـن مشاة البحرية على جزيرة كـوه تانغ واجهوا مشكلات، إذ توقعنـا ألا يزيد عدد الكمبوديين على عشريـن جندياً على الجزيرة. وفي الحقيقـة، تعرضت حواماتنا لإطلاق نار كثيـف من مئات من الجنود المجهزيـن بالقذائف الصاروخيـة، ومدافع الهاون، والأسلحـة الرشاشة التي نصبت فـي الجزيرة لمنع الفيتناميين من الاستيلاء عليها. ولأننـا اعتقدنا بوجود طاقم الـ«مايا غويز» هناك، لم نقم بعملية قصف تمهيـدي. وحوامـة سلاح الجو المتوفرة لدعـم القوات الأرضية لم تتمكن من الاتصـال معها. قتل خمسة عشـر جندياً من المارينز من الوحدة التي ضمت بالأصل مئة وخمسة وسبعين؛ وأسقطت أو أعطبت ثمان من أصل تسع حوامات شاركت في الموجة الأولى من الهجوم.

مـن أجل تبديد ما دعي بـ«ضباب المعركة»، بث الخمير الحمر مع بدء عملياتنا العسكرية، بياناً يشير ضمنـاً إلـى أن الـ«مايا غويز» سيطلق سراحهـا، رغم أن واشنطن لم تعلم بالبيـان إلا بعد ساعة وربع. أما مجرى الأحداث فكان كالتالي:

فـي الساعة 7:07 مساء (بتوقيت واشنطن) من يوم 14 أيار/مايو، بدأت إذاعة بنوم بنه المحلية ببث بيـان مطول باللغـة الكمبودية ألقاه هو نيم، وزير الإعلام والدعاية فـي حكومة الخمير الحمر. ولم يدخل في الموضوع إلا قرب نهاية البيان الذي استمر تسع عشرة دقيقة، حين أشار على ما يبدو إلى أن السفينة «ستطـرد». وحين نأخذ بالاعتبـار الوقت المطلوب للترجمة، فإن فحوى البيان لم يصل إلى البيت الأبيض إلا بعد ساعة تقريباً (انظر الفقرات التالية).

فـي الساعة 7:9 مساء، وقبل أن يصل هـو نيم إلى الجزء العملياتي من بيانه، بدأ هجومنا بالحوامات على كوه تانغ.

فـي الساعـة 7:20 مساء، أطلقت سلطات الخمير الحمر على جزيرة كوه رونغ سام ليم، قرب كومبونغ سوم، سراح أفراد طاقم الـ «مايا غويز» (دون علم واشنطن) وسلمتهم إلى زورق صيد تايلندي.

فـي الساعة 8:05 مساء، وقبل أن يصل نص بيـان هو نيم إلى البيت الأبيض، انطلقت أولى الطائرات من الحاملة «كورال سي». وستصل إلى أهدافها على البر التايلندي خلال أقل من ساعة.

في الساعة 8:06 مساء، وصل أول موجز لبيان هو نيم إلى جهاز استقبال البرقيات في «خدمة معلومات الإذاعات الأجنبية»[10] (FBIS).

في الساعة 8:15 تقريباً، تلقينا ـ أنا وسكوكروفت ـ موجز بيان هونيم.

في الساعة 8:25 مساء، أبحرت المدمرة «هولت» بمحاذاة الـ«مايا غويز» واستولت عليها.

في الساعة 8:29 مساء، أعلم الرئيس بالبيان الإذاعي.

بـرر بيان هونيـم احتجاز السفينة بذكر مخاوف الخمير الحمر مـن الأنشطة «التجسسية» من جانب سفـن التجسس التابعة «للولايـات المتحدة الإمبريالية». كمـا زعم أيضا بـأن الـ«مايا غويز» دخلت المياه الإقليميـة الكمبودية. أمـا القسم العملي المهم من خطبة هونيم المسهبة فأتـى عند النهاية: «ليس لدينا النيـة لاحتجازهـا (السفينة) إلـى الأبد.. ورغبة منا بعـدم استفزاز أحد أو إثـارة المشكلات، وللالتزام بموقف السلام والحياد، سوف نطلق سراح هذه السفينة». ولم يكن هناك أية إشارة إلى الطاقم.

حين تلقت غرفة العمليات في البيت الأبيض هذا الاتصال الأول ـ المبهم وغير المباشر ـ بعد يومين ونصـف اليوم من الصمت المريب، كانت عملياتنا العسكرية قد بدأت. ولم نستطيع وقف العمل العسكري علـى جزيرة كوه تانغ بدون المخاطرة بإتاحة الفرصـة للخمير الحمر لأسر مشاة البحرية المئة المتبقين هناك. وكان من المرجح الاستيلاء على الـ«مايا غويز» بخلال دقائق من استلام البيان الإذاعي

توجب اتخاذ قرار بشأن المضي قدماً بالغارات الجوية ضد البر الكمبودي. كانت الطائرات المنطلقة من الحاملة «كورال سي» في طريقها إلى أهدافها لكنها تحتاج إلى خمس عشرة دقيقة أخرى لبلوغها. فهل ينبغي إلغاء القصف؟، تلك كانت المشكلة. كان القرار يتطلب حذراً وبراعة ودقة. فبعد يومين ونصف من الاحتجاز ـ من قبل نظام توضحت بكل جلاء ميوله الإجرامية ـ بدا افتقاد الدقة في المعلومات فيما يتعلق بالطاقـم أمراً خطيراً ينـذر بالشؤم. وقد كان في متناول زعماء الخمير الحمـر العديد من الوسائل لنقل قرارهم قبل ساعات أو حتى أيام؛ كان بمقدورهم إعلامنا رسمياً عن طريق الصينيين أو الأمم المتحدة، لكنهـم لـم يحاولوا ذلك. من ناحيـة أخرى، إذا كانت لدى الخمير الحمر النيـة لإطلاق سراح الطاقم ثم امتنعـوا عن ذلك لأن القصف استمر بعد بـث البيان، فإن ردة فعل الكونغرس ستكون عنيفة. لذلك طلبت مـن سكوكروفـت أن يعلم مركـز القيادة العسكريـة القومي بأننـي سأسعى للحصول علـى توجيه رئاسي وأننـي أنوي أيضاً استشارة الوزير شلسنجر. ونظراً لعدم توفر الوقت الكافي، اقترحت أن تتابع الطائرات المنطلقة من الحاملة «كورال سي» طريقها لكن دون أن تلقي بقنابلها إلى أن يتخذ الرئيس قراره.

بـدا فورد متشـككاً حيـن اتصلت به فـي الساعة 8:30 مسـاء، وهو يستعـد لاستقبال رئيـس الوزراء الهولندي. وقال: إنه لن يغير أياً من قراراته حتى يتأكد من إطلاق سراح الطاقم.

شـارك شلسنجر الرئيـس رأيه. وقدم الحجة على أن بيان الخمير الحمر كان لأغراض الدعاية فقط، وذلـك بالرغم من كل ما عرفناه. وحين اتصلت بفورد مـرة أخرى في الساعة 8:50 مساء، لإعلامه بآراء

شلسنجـر، كانـت الـ«مايا غويز» قد وقعت فـي قبضتنا، والطائرات المنطلقة من «كـورال سي» مازالت في الطريق إلى أهدافها. واتخذ فورد قراره: «قل لهم أن يتابعوا المهمة، الآن فوراً».

في ذات الوقت، قررنا وقف الضربات الجوية حالما نعلم بإطلاق سراح الطاقم فعلاً. لكن كيف يمكن نقل هذا القرار إلى الخمير الحمر؟ في عصر الاتصالات الفورية والقنوات المتعددة، كنا في حالة تشوش ملحوظـة وحيـرة كبيرة حول كيفية نقل هـذا التوكيد. وفيما عدا سفارتي الصيـن وفيتنام، لم تكن هناك سفـارات أجنبيـة في كمبوديا ولا توجد سفارات كمبودية في الخارج يمكن من خلالها الاتصال ببنوم بنه. وبعد التفكير بشكل عرضي وغير جدي بفكرة اختراق الاتصالات الكمبودية، قررنا أن أفضل وأسرع الطرق هي إصدار بيان لوكالات الأنباء. وطلب سكوكروفت من نيسين أن يأتي إلى مكتبي لكي أعطيه مسودة بيان ليقرأهـا أمام الصحافـة. رفض نيسين؛ وتشبث بحقـه الذي لا يجيز لي أن أمره بالقـدوم لمقابلتي. كما اتخـذ موقفـاً منطقياً علـى أساس أن إعـلان انتهاء العمليـات العسكرية التي لا يعرف عنهـا الرأي العام الأمريكـي شيئـاً، سوف يخلق حالة من التشوش والفوضى. كان على حـق، لكن ذلك لم يحل مشكلتنا. في نهايـة المطاف، اضطـر سكوكروفت لأن يجره جراً (بالقوة الجسدية تقريبـاً) إلى مكتبي للمساعدة على وضع اللمسات الأخيرة على البيان التالي، الذي صدر في الساعة 9:15 مساء.

> سمعنا من خلال الإذاعة أنكم مستعدون لإطلاق سراح السفينة «مايا غويز». نحن نرحب بهذا التطور إن كان صحيحاً.
>
> كمـا تعلمون، لقد قمنا باستعادة السفينة، وحالما تصدرون بياناً تؤكدون فيه استعدادكم لإطلاق سـراح أفراد الطاقم الذين تحتجزونهم بشكل فوري وبدون شروط، سوف نوقف بسرعة العمليات العسكرية.

لـم يصلنـا أي رد. وفـي الساعة 10:49، التقطت المدمـرة «ولسون» التي وصلت إلـى المنطقة حديثاً أفـراد طاقم الـ «مايا غويز» الذين وضعهم آسروهم علـى مركب صيد تايلندي مجهز بأشرعة بيضاء على أعمـدة عاليـة لجلب انتباه الطائرات أو السفن الأمريكية. علـم الرئيس بالأمر بعد دقائق وهو في المكتب البيضاوي، حيث اجتمع أقرب مساعديه بعد الفشل المحرج لحفل العشاء المقام على شرف دين أويل.

وتبعاً لتجربتي، حتى حين تنتهي أزمة ما وسط جو من الابتهاج ـ كما حصل مع هذه الأزمة بالتأكيد ـ فلا بد أن تتبعها خيبة الأمل حتماً. أولاً، لأن لحظة الانتصار تذكرنا بأن السياسة الخارجية لا تعرف مكاناً للراحـة، وأن كل نجـاح يكون عادة عبارة عن تذكـرة دخول إلى مجموعة أخرى مـن القرارات. الأهم من ذلك، أن تحليل الحدث بعد وقوعه يكشف غالباً بعض المشكلات التي لم يشتبه بوجودها من قبل وتحتاج للانتبـاه. وفي حالة الـ«مايا غويز»، وفي خضـم الفخر بما تم إنجازه، كان هناك شعور مزعج بأن علينا ألا نواجه مرة أخرى أزمة بإجراءات وتشوش بيروقراطي، كهذا الذي أحدق بتعاملنا مع هذه الحالة.

فـي الحقيقـة، وحتى حين كان هؤلاء الذيـن تجمعوا في المكتـب البيضاوي يحتفلـون بالنصر، جاء ما يذكرهم بغياب علاقة الوئام بين وزير الدفاع والرئيس. الناطق باسم شلسنجر، جوزيف ليتين، تولى بنفسه إعـلان أن الطاقـم في أمان بدلاً من أن يترك إعلان الخبر السعيد للرئيـس. أما فورد، الذي وجهتنا قيادته إلـى تحقيـق هذه النتيجة، فـكان مضطراً بالتالي ـ دون أن تغيب التكشيرة عـن وجهه ـ لإعلان نهاية الأزمة وكأنهـا فكـرة خطرت على باله متأخرة بعد أن بدل بسرعة ثياب السهرة ليرتدي بزة العمل. وحين فعل، عاد إلى المكتب البيضاوي وأعلن ببساطة: «سأذهب إلى البيت لأنام». تلك كانت نهاية أزمة الـ«مايا غويز»[11].

تحليل الأزمة بعد انتهائها

انتهـاء الأزمة لـم يضع حـداً للتحليلات التـي أعقبتها. ففي حين سـاد شعور بالفخر فـي المحصلة الأخيـرة نتيجـة قدرة وزارة الدفاع على حشد القوة الأمريكية والاستفـادة منها بسرعة، إلا أن العديد من الأسئلـة المقلقة بقيـت دون جواب. فقد كانت المعلومـات الاستخباراتية ضعيفة طيلـة الأزمة. وفي كثير مـن المراحـل، بدءاً بأول اجتماع لمجلس الأمن القومي، اتخذت قـرارات مؤسسة على معلومات تبين أنها خاطئـة كليـة تقريباً. واختتمت الأزمة بتقدير يفتقد الدقة حول الوضع في كـوه تانغ، حيث قيل لنا: إن قلة قليلـة فقط من جنود الخمير الحمر يحتجزون أفـراد الطاقم. ومن العدل القول إن من الصعب الحصول علـى معلومـات استخباراتية في منطقة لم يكن لها عادة سوى أهميـة هامشية بالنسبة لواشنطن، ونتيجة لذلك توجب البدء بجمع المعلومات من نقطة الصفر. لكن هذا القيد المحدد لم يوضح نهائياً للمسؤولين المجتمعين للتشاور في قاعة اجتماع الحكومة في البيت الأبيض.

أما العامل الذي سبب أشد مشاعر القلق التي ظلت عالقة في الأذهان فهو فجوة الاتصالات الواضحة بيـن البيـت الأبيض والبنتاغون، بدءاً من تسـرب مداولات مجلس الأمن القومي وانتهـاء بإدارة العمليات العسكريـة. في هذه المرة لم يحصل الاحتـكاك والاختلاف في الرأي بيني وبين شلسنجر، بل إن الرئيس فـورد، القائـد العام للقوات المسلحة، هو الذي شعر بأن المعومات التـي تلقاها لم تكن كافية. إذ لم يعلم ببعض القرارات إلا عند اختتام اجتماعات مجلس الأمن القومي، وحتى في هذه الحالة علم بها عن طريق الصدفة. فقد وافق الرئيس على استخدام الطائرات المنطلقة من الحاملة «كورال سي» بدلاً من قاذفات «ب52» بشـرط بذل أقصـى الجهد، أي القيام بأربع غارات منفصلة، وألا يوقـف القصف إلا بعد إصداره أمـراً مباشراً بذلـك. وعند مراجعة ما تم في اجتماع مجلس الأمن القومي في يوم الثلاثاء الخامس عشر مـن أيار/مايـو 1975، تبين أن الجنرال جونز قد قدم عرضاً تفصيلاً لمـا حدث، وأشار إلى أربع موجات مـن الطائـرات التي انطلقت من الحاملة «كورال سي». لكنه عنـد وصف الموجة الأولى قال: «الأولى كانت عبارة عن طائرات استطلاع مسلحة. لكنها لم تلق بحمولتها من القنابل». استطعت أن أرى وجه فورد وقد احمر بفعل الغضب. ولم يقل شيئاً إلا بعد أن استنفذ النقاش التالي صبره:

كيسنجر: كم عدد إجمالي الطائرات التي استخدمت؟

جونز: بين 32 ـ 40 طائرة.

شلسنجر: مع أن هناك 81 طائرة على الحاملة.

وحيـن اتضح أن الحاملة «كورال سي» لم تقـم بالجهد الأقصى كما أمر، قاطع فورد الاجتماع ودعاني للخروج من «قاعة الحكومة» للحظة. ثم طلب مني إيجاز فهمي للأوامر التي أصدرها. وبعد أن فعلت، عاد إلى اجتماع المجلس دون أن يتفوه بكلمة ثم خاطب شلسنجر ببرود:

جيم، أريـد تقريراً كاملاً بالوقائع يوجز ما حدث حسب الترتيب الزمني، يشمل الأوامر، وموجزاً للنتائج، والصور.. إلخ. وعرضاً للأعمال التي قمنا بها آنئذ.

عند هذه النقطة أنهى الرئيس النقاش حول الـ «مايا غويز» وانتقل إلى موضوع آخر.

في لقائنا الذي تم صبيحة اليوم التالي، ظل فورد منزعجا نتيجة عدم قيام الموجة الأولى من الطائرات بقصـف أهدافهـا. وأقر بإمكانية حدوث بعض الارتباك والتشوش نتيجـة التوقف في انتظار مناقشة بيان الخميـر الحمـر؛ لكن ما أثار غضبه واستياءه أنه لم يعلم مطلقاً بـ «الاستطلاع المسلح» ـ مهما كان يعني ـ وأن شلسنجـر قد تـرك لديه في الحقيقة انطباعـاً معاكساً حين نقل إليه «اكتمـال الضربة الأولى» بعد الموجة الأولى. والأهم من كل ذلك، أن فورد لم يتسامح مع إلغاء الضربة الجوية الرابعة:

فـورد: أتذكر أننـي أخبرت (قائد العمليـات البحرية الجنرال جيمـس) هولواي بمتابعة الضربات حتى أصدر أمراً بوقفها.

سكوكروفت: هذا ما أتذكره أيضا. وقلت ذلك لشلسنجر.

فـورد: أريـد عرضاً تفصيلياً بالأوامـر التي لم تنفذ وبكل التغييـرات التي أجريت عليها. أريد تقييما للعملية ـ بما في ذلك تسلسل الأحداث منذ إقلاع الطائرات.

كيسنجر: يجب أن تطلب كل الأوامر التي صدرت منذ بدء العملية.

فـورد: وهـذا يشمل الأوامـر الصادرة من البنتاغـون إلى قيادة قـوات الولايات المتحدة فـي المحيط الهادئ، ومن هناك إلى القـادة الميدانيين. أريد معرفة أوامر وزارة الدفاع مقارنة بالأوامر الصادرة من مجلس الأمن القومي.. بما في ذلك ما حدث خلال الموجة الأولى، والثانية، واللاحقة فيما بعد. يبدو لي أنه جرى تجاهل ما حدث في غرفة العمليات من قبل مركز القيادة العسكرية القومي في وزارة الدفاع.

المراجعة التي أجريت لم تحل الحالات الغامضة هذه كافة. مما لا شك فيه أن بعض التشوش قد حدث نتيجـة ترددنـا في البداية، على ضوء البيان الكمبودي، حول المضـي قدماً في الضربات الجوية ضد البر

الكمبودي. كان فورد قد أعاد التأكيد في الساعة 51: 8 بشكل واضح على الأمر الأصلي الذي أصدره، ونقل إلى شلسنجر ومركز القيادة العسكرية القومي في الساعة 52: 8. أما بالنسبة للموجة الرابعة من الغارات، فقد علمنا من عرض جونز للوضع أنها لم تنطلق قط، ولم تنفذ أوامر فورد بالكامل في أية واحدة من الموجات الأخرى. من العدل القول: إن شلسنجر قد تصرف على أساس بيان نيسين الذي أعلنه في وقت أبكر من ذلك المساء، رداً على البيان الإذاعي للخمير الحمر، وأشار فيه إلى أن العمليات الحربية سوف تتوقف حالما يتم إطلاق سراح الأسرى.

عند استعادة ما جرى في الماضي، تظهر هذه الأحداث (رغم أنني لم أفكر بذلك آنئذ) خطر تخطيط العمليات العسكرية في مجلس الأمن القومي دون أية تحضيرات من قبل جماعة مساعدة من الخبراء، ودون وجود مسؤول ـ أقل مرتبة من الرئيس ـ يقوم بمهمة التنسيق ساعة بساعة. مجلس الأمن القومي مصمم بشكل أفضل لاتخاذ القرارات العامة، وليس لإدارة الأزمة على مستوى التفاصيل الصغيرة. فقد أمر الرئيس في اجتماع مجلس الأمن القومي بشن غارات باستخدام الوسائل والأدوات المتوفرة كافة، لكن في غياب قائد هيئة الأركان المشتركة، لم يكن هناك ضابط عسكري قريب منه بما يكفي لنقل أوامره بصورة واضحة لا لبس فيها عن طريق تسلسل القيادة. وهذا أعطى وزير الدفاع ـ الذي لا يعتبر تبعاً لنظامنا حلقة مباشرة في سلسلة القيادة ـ ما تبين أنه الرأي الحاسم. ولم يكن من المفهوم، بالنسبة لأولئك الذين يداومون على اتصال مستمر مع الرئيس، أنه كان يعني حصر الموجة الأولى ضمن نطاق الاستطلاع المسلح الذي لا يتم فيه قصف الأهداف. ولا يجب أن يترك إدراك أوامر الرئيس فورد من قبل مختلف أعضاء مجلس الأمن القومي، والذين كانوا على اتصال أقل وتيرة به، إلى تفسيراتهم الشخصية.

لا يسمح حجم ومستوى مجلس الأمن القومي بالإشراف على العمليات بمثل هذا الشكل المفصل. ولهذا السبب أنشأ الرئيس كيندي ما سمي باللجنة التنفيذية لمجلس الأمن القومي خلال أزمة الصواريخ الكوبية، كما دفع إدارتي نيكسون وفورد إلى تدعيم المجلس بـ«مجموعة العمل الخاصة في واشنطن» على مستوى نواب الوزراء. وفي هذه الحالة، كان كبار المسؤولين يتعاملون مع الرئيس مباشرة في اجتماعات مجلس الأمن القومي ويناقشون المسائل التكتيكية أو يخلفون انطباعات لدى مرؤوسيهم بأنهم يفعلون ذلك. الأمر الذي جعل من الصعب تحديد المسؤولية فيما يتعلق بالتصرفات الفردية.

فشلت مراجعة مختلف الأوامر الصادرة من البنتاغون في توضيح السبب الغامض، الذي جعل الموجة الأولى من الطائرات تمتنع عن إلقاء قنابلها، ولماذا أخبر شلسنجر الرئيس بأن الضربة الأولى قد «اكتملت»، ولِمَ لم تنفذ موجة القصف الرابعة. في مذكراته، يذكر فورد أن تفسيرات البنتاغون «لم تكن مقنعة»، لكنه «تجاهل المسألة» لأن العملية قد نجحت[12]. ورغم أن أياً من الرؤوس لم تتدحرج، إلا أن فورد لم يستعد الثقة مطلقاً بوزير دفاعه.

كل مـا بقي الآن هو تنظيـف المخلفات العالقة بالأزمة. تراوحت ردود أفعال معظم الدول خارج الكتلة الشيوعيـة بين الارتياح واللامبالاة. حاولت الصين التعويض عن موقفها المتساهل خلال الأزمة عبر دفع نائـب رئيـس وزرائها لي جيان نيان إلى التأكيـد في حفلة استقبال على أن التصـرف الأمريكي بلغ مرتبة «أعمـال القرصنـة». والتعليق احتل مكاناً بارزاً في صحيفة «الشعب» اليومية. وبالرغم من أن هذه وغيرها من التعليقات لم تصل إلى حد التصريحات الرسمية، إلا أنني أصدرت تعليماتي إلى ونستون لورد (رئيس طاقـم تخطيط السياسة) ووليام غليستيـن (مساعد وزير الخارجية لشؤون شـرق آسيا)، وفيليب حبيب (الـذي رقي لمنصب نائب وزير الخارجية) في الثالـث والعشرين من أيار/مايو بتقديم احتجاج إلى هان جو، رئيس مكتب الارتباط الصيني في واشنطن:

> يمكـن لمثل هذه التصريحات التي يدلي بها الجانب الصيني أن تفرز تأثيراً خطيراً على الرأي العام عندنا، ولا يمكن لمثل هذه التصريحات، إن استمرت، أن تفيد علاقاتنا.

الجـزء الآخـر غير المنجز مـن العمل والذي يحتاج إلـى انتباه هو ردة فعل تايلنـد. فقد كنا نستخدم القواعد في تايلند بدون إذن ـ بل حتى بدون إعلام الحكومة في واقع الأمر. وفي أعقاب الانهيار في الهند الصينيـة، طلبت تايلنـد، كما أشرنا آنفاً، أن ننسحب من هذه القواعد بخـلال سنة. أما الآن فهي تطالب بانسحابنـا الفوري، فيما تبين أنه إشارة رمزية كليـة. في التاسع عشر من أيار/مايو، أرسلنا مذكرة تعبر عـن الأسف «لحالات سوء الفهم التـي انبثقت بين تايلند والولايات المتحدة»، وعـن تصميمنا على العمل «علـى أساس التوافق والانسجـام والصداقة مع حكومة تايلند الملكية». وسرعـان ما عادت العلاقات إلى وضعهـا الطبيعي. وعاد السفيـر التايلندي، بعد أن استدعته حكومته، إلـى واشنطن، وتم سحب العاملين العسكريين الأمريكيين من تايلند تبعاً للجدول الزمني الأصلي الذي حدد المدة بسنة واحدة.

لا تنتهي الأزمات في واشنطن إلا إذا اعتبرتها وسائل الإعلام منتهية، والطقس الشعائري لا يكتمل أبداً بدون مؤتمر صحفي ختامي له. عقد هذا المؤتمر في السادس عشر من أيار/مايو في وزارة الخارجية. أما أفضـل من وصف أسئلة واستفسارات الصحافة فكان جون أوزبورن حين اعتبرها بمثابة «خزي للصحافة والصحفييـن المعنيين»[13]. السؤال الافتتاحي حدد النبـرة من خلال الإشارة إلى العملية برمتها بوصفها «هـذا العمل الطائش». كانت الأسئلة اللاحقة كافة مجـرد اتهامات ضمنية بشـكل أو بآخر: فقد انتهكنا سيـادة تايلنـد؛ وكدنا نقتـل الطاقم بدلاً من أن ننقذه؛ قـد كانت حكومة الولايـات المتحدة مخطئة لعدم تحذيرهـا السفـن كافة بشكل مسبق من حوادث تجري في المنطقة؛ وأن العمل برمته استهدف رفع الروح المعنوية لعامة الشعب الأمريكي؛ وأننا لم نتح للديبلوماسية الفرصة كي تعمل.

ونظرا لأنني أصبحت الآن خبيراً عارفاً بمثل هذا النوع من الهجوم، فقد أجبت قائلا:

❖ لم يكن بمقدورنا المخاطرة بمواجهة وضع شبيه بما حدث مع السفينة «بويبلو»، حيث نترك أفراد الطاقم الأبرياء يؤخذون رهائن، بينما نتعرض لمضايقة المفاوضات لفترة طويلة من الزمان.

❖ «لـم نتلـق أي اتصــال، (أو) اقتراح، يمكننا من تحـري واستكشاف الحـل الديبلوماسي». وبحلول الوقـت الذي تلقينا فيه من الخمير الحمر بياناً إذاعياً مغالياً في الغموض والإبهام، كانت العملية قد بدأت.

❖ لـم نكـن نبحث عن فرص لإثبـات شجاعتنا، بل كان مـن الجوهري بالنسبة لـدور أمريكا العالمي فـي أعقـاب سقوط سايغون ترسيخ حقيقـة أن هناك حدوداً لا يمكن دفـع الولايات المتحدة فيما وراءها.

في السابع عشر من أيار/مايو، أبحرت الـ«ماياغويز» إلى سنغافورة حيث كان في استقبالها حشد من الصحفييـن. عقد مؤتمـر صحفي على رصيف الميناء، وسرعان ما بدا واضحـا أن ربان السفينة الكابتن تشارلز ت.ميللر، قد رفض إتباع السيناريو المصحح سياسياً والمفضل صحفياً. ففي رده على أحد الأسئلة المغرضـة والمتشككـة، امتدح الرئيس فورد ومشـاة البحرية لإنقاذ سفينته وطاقمـه. ولولا جهود الإنقاذ العسكرية، كما أعلن القبطان مؤكداً، لكان أفراد الطاقم «أسرى أو قتلى الآن». وعلى ما يبدو تأثر القبطان وهـو يروي كيف اكتشف أفراد الطاقم، وهـم على سفن البحرية التي أنقذتهم، أن مشاة البحرية قد قتلوا وجرحوا في العمليات العسكرية التي أنقذت حياتهم.

أكـد القبطـان ميللر أن العمـل العسكري الأمريكي لعـب دوراً رئيساً في قرار الخميـر الحمر بإطلاق سراح السفينة والطاقم. وفي الحقيقة، استخدم القبطان التحركات العسكرية الأمريكية للمساومة، حيث أخبـر آسريـه من الخمير الحمر بأنه سيتدخل لدى الحكومة الأمريكية لوقف أي عمل عسكري إضافي إذا ما تم إطلاق سراح الطاقم.

فـي الثالـث والعشرين من أيار/مايو، أوجز فـورد حادثة الـ«ماياغويز» بأسلوبـه المؤثر في مقابلة مع الصحفيين الأوربيين بثتها هيئة الإذاعة البريطانية:

> أنـا واثق من أن التعامل مع حادثة الـ«ماياغويـز» يجب أن يعتبر، على الصعيدين المحلي داخل الولايات المتحدة والعالمي، تأكيداً صارما على أن الولايات المتحدة تمتلك الإرادة والقـدرة على التصرف في حالات الطـوارئ وفي مواجهة التحديـات. أعتقد أنها إشارة جلية واضحة تدل على أننا لسنا أقوياء فقط، بل نملك الإرادة والقدرة على التحرك[14]

وبهذا غابت الهند الصينية عن «الأجندة» الأمريكية. ما قاله فورد كان صحيحاً، لكنه لم يغير من حقيقة أننا دخلنا الهند الصينية لإنقاذ بلد، وانتهينا بإنقاذ سفينة.